سلسلة المقالات
المنهجية
(٣٠)

«إِنَّ اللَّه لَيُصْلِحَ بِصَلَاحِ العَبْدِ وَلَدَهُ وَوَلَدَ وَلَدِهِ»

مَنْهَجِيَّةُ الإِصْلاحِ الشَّرْعِيِّ وضَوَابِطُهَا

كتبه

الباحث الدكتور/عيد أبو السعود الكيَّال

بسم الله الرحمن الرحيم

«افتتاحية المقالة»

الحمد للَّه ربِّ العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلَّا على الظالمين، وأشهد أنَّ لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله ﷺ أمَّا بعد:

فإنَّ من المعلوم من الدين بالضرورة أنَّ صلاح الأبناء بصلاح الآباء، فصَلاح الأصل ثمرة لصلاح الفرع، والأصول والفروع ثمرات للكليّة الأم والدعامة الرئيس المتمثلة في صلاح الدين والعبوديّة الحقّة، التي خلق لها بنو آدم.

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١- ٢٢]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٨].

قال الفقيه الأصولي اللغوي المفسّر: أبو عبد اللَّه القرطبي في كتابه الجليل: «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ١٩٦):

«قوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] لعلّ: متصلة باعبدوا، لا بخلقكم؛ لأنَّ من ذرأه اللَّه [وخلقه] لجنّهم لم يخلقه ليتّقي، وهذا ما كان مثله فيما ورد في كلام اللَّه تعالىٰ من قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٢]، ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣]، فيه تأويلات ثلاث:

الأول: أنَّ «لعلَّ» علىٰ بابها من الترجِّي والتَّوقُّع، والتَّرجِّي، والتوقُّع إنَّما هو في حيِّز البشر، فكأنَّه قيل لهم: افعلوا ذلك علىٰ الرجاء منكم والطمع أن تعقلوا، وأن تذكروا، وأن تتقوا.

هذا قول سيبويه ورؤساء اللسان، قال سيبويه في قوله ﷻ: ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤] قال: معناه: اذهبا علىٰ طمعكما ورجائكما أن يتذكر أو يخشىٰ، واختار هذا القول أبو المعالي.

الثاني: أنَّ العرب استعملت «لعلَّ» مُجَرَّدة من الشّك بمعنىٰ لام لكي، فالمعنىٰ: لتعقلوا ولتذكروا ولتتقوا، وعلىٰ ذلك يدل قول الشاعر:

وقلتم لنا كفّوا الحروبَ لعلّنا نَكُفُّ ووثَقتم لناكل مَوْثِقِ
فلمَّا كففنا الحرب كانت عهودكم كَلَمْعِ سَرابٍ في الملا مُتَألِّق

والمعنىٰ: كُفّوا الحروب لنكُفّ، ولو كانت «لعلَّ» هنا: شَكًّا لم يوثقوا لهم كل موثق، هذا عن قطرب والطبريِّ.

الثالث: أن تكون «لعلَّ» بمعنىٰ التَعرّض للشيء؛ كأنّه قيل: افعلوا ذلك متعرّضين لأن تعقلوا، أو لأنْ تذكروا، أوْ لأن تتقوا.

والمعنىٰ: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾؛ أي: لعلكم أن تجعلوا بقبول ما أمركم اللَّه به وقاية بينكم وبين النَّار.

وهذا من قول العرب: اتقاه بحقّه إذا استقبله به؛ فكأنّه جعل دفعه حقه إليه وقاية له من المطالبة؛ ومنه قول عليّ رضي الله عنه: كُنَّا إذا احْمَرَّ البأس اتقينا بالنَّبِيّ ﷺ [رواه مسلم في «صحيحه» (٧٩/ ١٧٧٦)]؛ أي: جعلناه وقاية لنا من العدو، وقال عنترة:

ولقد كَرَرْتُ المُهْرَ يَدْمِي نَحْرُه حتىٰ اتقتني الخيْل بابني حِذْيَم». اهـ

وقال ابن كثير في: «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٢٧١):

«ثُمَّ قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ أي: إنَّما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؛ أي: إلَّا ليقروا بعبادتي طوعًا وكرهًا، وهذا اختيار ابن جرير. وقال ابن جُرَيْج: إلَّا ليعرفون.

وقال الربيع بن أنس: إلَّا للعبادة، وقال السّدّيّ: من العبادة ما يَنْفع، ومنها ما لا ينفع ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ﴾ [لقمان: ٢٥] هذا منهم عبادة، وليس ينفعهم مع الشرك باللَّه، وقال الضحّاك: المراد بذلك المؤمنون». اهـ.

فإذا كان ذلك كذلك، فإليك عناصر المقالة:

العنصر الأول: وكان أبوهما صالحًا:

قال اللَّه في قصة موسىٰ والخضر عليهما السلام: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢].

قال ابن كثير في: «تفسيره» (٥/ ١٢٠- ١٢١):

«ومعنىٰ الآية: أنَّ هذا الجدار إنَّما أصلحه لأنّه كان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنزٌ لهما.

قال عكرمة وقتادة وغير واحد: كان تحته مال مدفون لهما.

وهذا ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير رحمه الله.

وقال العَوْفِيُّ عن ابن عباس: كان تحته كنز علم، وكذا قال سعيد بن جبير، وقال مجاهد: صحف فيها علم.

وقد ورد في حديث مرفوع ما يقوي ذلك، قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزَّار في «مسنده» المشهور [حديث (٢٢٢٩)]:

حدثنا . . . . عن أبي ذر رفعه [إلىٰ النَّبيّ ﷺ] قال: «إنَّ الكنز الذي ذكر اللَّه في

كتابه: لوح من ذهب مُصمَت مكتوب فيه: عجبت لمن أيقن بالقدر لِمَ ينصب؟!

وعجبت لمن ذكر النَّار ولِمَ ضحك؟! وعجبت لمن ذكر الموت لِمَ غَفِل؟ لا إله إلَّا اللَّه محمد رسول اللَّه» [وفي رواية عن ابن عباس من قوله موقوفًا قال: كان لوحًا من ذهب مكتوبًا فيه: بسم اللَّه الرحمن، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن؟! عجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب؟! عجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح؟! عجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل؟! عجبت لمن يؤمن بالدنيا وتقلّبها بأهلها كيف يطمئن لها، لا إله إلَّا اللَّه محمد رسول اللَّه»].

وذُكر أنّهما حُفِظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر منهما صلاح، وكان بينهما وبين الأب الذي حُفِظا به سبعة آباء وكان نسَّاجًا.

وهذا الذي ذكره هؤلاء الأئمة، قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ فيه دليل علىٰ أنَّ الرَّجل الصالح يُحفظ في ذريّته، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة، بشفاعته فيهم ورفع درجاتهم في الجنّة لتقر عينه بهم، كما جاء في القرآن ووردت به السنن [قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ [الطور: ٢١].

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: «حفظًا بصلاح أبيهما». اهـ.

وقال القرطبيّ في «جامعه» (١٠/ ٣٣٣):

«ففيه دليلٌ علىٰ أنَّ اللَّه تعالىٰ يحفظ الصالح في نفسه وفي ولده وإن بعدوا، وقد رُوي أنَّ اللَّه تعالىٰ يحفظ الصالح في سبعة من ذرّيّته، وعلىٰ هذا يدلُّ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٩]. ». اهـ.

وذكر القرطبيِّ في «جامعة» (٧/ ٢٤٥) عند الآية الأخيرة:

«قوله: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ﴾؛ أي: الذي يتولّىٰ نصري وحفظي اللَّهُ.

ووليُّ الشيء: الذي يحفظه ويمنع عنه الضرر، والكتاب: القرآن، ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾؛ أي: يحفظهم.

وفي صحيح مسلم [حديث (٢١٥) والبخاري (٥٩٩)] عن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ جهارًا غير سرًّا يقول: «**ألا إنَّ آل أبي -يعني فلانًا- ليسوا لي بأولياء، إنَّما وَلِيِّيَ اللَّهُ وصالح المؤمنين**». اهـ.

● وصية عمر بن عبد العزيز لأولاده:

قلت: وروىٰ أبو نعيم في «حلية الأولياء» (**٧٤٢٢**).

عن عمر بن عبد العزيز، قال هاشم:

لما كانت الصرعة التي هلك فيها عمر، دخل عليه مسلمة بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، إنّك أفقرت أفواه ولدك من هذا المال فتركتهم عالة لا شيء لهم، فلو أوصيت بهم إليَّ، أو إلىٰ نظرائي من أهل بَيْتِكَ؟ قال: فقال أسندوني، ثُمَّ قال: «أمَّا قولك إنِّي أفقرت أفواه ولدي من هذا المال، فإنِّي واللَّه ما منعتهم حقًّا هو لهم، ولم أعطهم ما ليس لهم، وأمَّا قولك: لو أوصيت بهم إليَّ أو إلىٰ نظرائي من أهل بيتك، فوصيني ووليِّي فيهم اللَّه الذي نزَّل الكتاب وهو يتولىٰ الصالحين، بِنِيَّ أحد رَجُلَيْن: إمَّا رجل يتقي اللَّه فسيجعل اللَّه له مخرجًا، وإمَّا رجل مُكبّ علىٰ المعاصي فإنِّي لم أكن لأقوّيه علىٰ معصية اللَّه».

ثُمَّ بعث إليهم وهم بضعة عشر ذكرًا، قال: فنظر إليهم فذرفت عيناه فبكىٰ ثُمَّ قال: «بنفسي الفتية الذين تركتهم عيْلَىٰ لا شيء لهم، بلىٰ بحمد اللَّه قد تركتهم بخير، أي بنيَّ، إنكم لن تلقوا أحدًا من العرب ولا من المعاهدين إلَّا كان لكم عليهم حقًّا، أي بنيَّ: إنَّ أمامكم مَيْلًا بين أمرين: بين أن تستغنوا ويدخل أبوكم النَّار، وأن تفتقروا ويدخل أبوكم الجنَّة، فكان أن يفتقروا ويدخل أبوكم الجنَّة، أحب إليه من أن تستغنوا ويدخل النَّار، قوموا عصمكم اللَّه».

• وصية التابعي محمد بن المنكدر:

وقد روىٰ ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٦٥٦٤) عن محمد بن المنكدر أنه قال:

«إنَّ اللَّه ليُصلح بصلاح العبد ولده وولد ولده، وأهل دويرته، وأهل الدويرات حوله، فما يزالون في حفظ من اللَّه ما دام فيهم».

قلت: فما أجلّه من كلام جزيل سديد تقعّد عليه القواعد؛ وهو موافق للأدلة الشرعية المذكورة في هذه المقالة من قبل ومن بعد وما سيأتي:

العنصر الثاني: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾!

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

قال ابن كثير في «تفسير القرآن العظيم» (٨/ ٨٩):

«يقول تعالىٰ مُخْبِرًا عن الأزواج والأولاد: أنَّ منهم من هو عدوّ الزوج والولد بمعنىٰ: أنه يلتهي به عن العمل الصالح، كقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، ولهذا قال تعالىٰ هنا: ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ قال ابن زيد: يعني: علىٰ دينكم.

وقال مجاهد: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ قال:

يحمل الرجل علىٰ قطيعة الرحم أو معصية ربّه، فلا يستطيع الرجل مع حبّه إلَّا أن يطيعه.

وروىٰ ابن أبي حاتم: حدثنا .... عن عكرمة عن ابن عبَّاس، وسأله رجل عن هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ قال: فهؤلاء رجال أسلموا من مكة، فأرادوا أن يأتوا رسول اللَّه ﷺ

فأبىٰ أزواجهم وأولادهم أن يَدَعُوهم، فلمَّا أتوا رسول اللَّه رأوا النَّاس فقهوا، فَهَمُّوا أن يعاقبوهم، فأنزل اللَّه هذه الآية ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وكذا رواه الترمذي وقال: حسن صحيح [في «سننه» حديث (٣٣١٧)].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥]، يقول تعالىٰ: «إنَّما الأموال والأولاد فتنة؛ أي: اختبار وابتلاء من اللَّه تعالىٰ لخلقه ليعلم من يُطيعه مِمَّن يعصيه». اهـ.

قلت: والشاهد من الآيات هنا: أنَّ علىٰ وليّ أمر الأسرة أن يُعلّم أولاده وزوجه العلم الشرعي الذي به يعلموا الحلال من الحرام، والحق من الباطل، والرشاد من الغي، والسُّنَّة من البدعة، وسبيل الفلاح والصلاح والفوز والرباح من سبيل الغواية والأهواء والشبهات وسُبُل الشياطين والهلاك والضلال والخسران.

وفي هذه الآية بيان كاف شاف من اللَّه، أنَّ من أعظم الفساد في الدين من هو أقرب إليك فاحذره، ويكون حذرك أشدّ من الحذر من الآخرين، وذلك لأنَّ المرء لا يفقه أن يأتي الهلاك من زوجك وولدك، فصرح ربّ العزة ﷻ بهذا البيان لِيَنْتَبِه من العدو الخفيّ.

قال أبو بكر بن العربيّ فيما نقله عنه القرطبي في «جامعه»٩ (١٨/ ١٠٧):

«هذا يُبيّن وجه العداوة، فإنّ العدو لم يكن عدوًا لذاته؛ وإنَّما كان عدوًا بفعله، فإذا فعل الزوج والولد فعْل العدو كان عدوًا، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد وبين الطاعة، وروىٰ البخاري في [«التاريخ الكبير» (٤/ ١٧٨) لا في «صحيحه»، وأحمد في «المسنده» (١٥٩٥٨) وابن حبان (٤٥٩٣) في صحيحه] من حديث أبي هريرة عن النَّبيّ ﷺ قال:

«إنَّ الشيطان قعد لابن آدم في طريق الإيمان فقال له: أتؤمن وتذر دين آبائك؟، فخالفه فآمن، ثُمَّ قعد له علىٰ طريق الهجرة فقال له: أتهاجر وتترك مالك وأهلك؟، فخالفه فهاجر، ثُمَّ قعد له علىٰ طريق الجهاد فقال له: أتجاهد فتقتل نفسك فتُنْكح نساؤك ويقسم مالك؟ فخالفه فجاهد فقتل، فحقّ علىٰ اللَّه أن يدخله الجنَّة».

وقعود الشيطان يكون بوجهين: أحدهما: يكون بالوسوسة، والثاني: بأن يحمل علىٰ ما يريد من ذلك الزَّوج والولد والصاحب، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٢٥].

وفي حكمة عيسىٰ عليه السلام: «من اتخذ أهلًا ومالًا وولدًا كان للدنيا عبدًا» اهـ.

قلت: وذلك إذا اتخذ هذه الأشياء حتىٰ عصىٰ اللَّه وترك الطاعة.

فكان هذا العنصر الثاني بيانًا جليًّا لإصلاح النفس، ثُمَّ إصلاح الأهل والزوجة، حتىٰ يستقيموا علىٰ الجادَّة الحقة، والتي منها يحدث الصلاح وتفقه الذريّة، وتتعلم الأجيال ما يجوز وما لا يجوز، وما يصلح وما يفسد؟

العنصر الثالث: حكمة العزيز الحكيم في الإصلاح والإفساد:

فإذا تقرر عندك ما مضىٰ بيانه من العنصرين السابقين، فقد بيَّن ربّ العزة وملك الملوك، من هلك وضل من أولاد وأزواج الأنبياء والمرسلين.

فقال تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ إلىٰ أن قال: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٢٧، ٣٢]، فهذا قابيل قتل هابيل فكان قابيل ابن أوَّل نبي علىٰ وجه الأرض من الخاسرين، ويتحمل وزر كل من قتل إلىٰ يوم القيامة، وكان أبوه صالحًا!!!

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

فآزر أبو إبراهيم الذي هو أبو الأنبياء بعد آدم ونوح، في النَّار.

وقال اللَّه تعالىٰ علىٰ امرأة إبراهيم: ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [هود: ٨١]، فهي في النَّار.

وقال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥].

وذلك لأنَّ نوحًا النَّبيّ ﷺ دعىٰ لابنه، علىٰ ضوء الآيات السابقة لها حيث قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٤٠]، فتأول نوح عليه السلام قوله تعالىٰ: «وأهلك» فدعىٰ له، فرد اللَّه عليه فقال: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، وهو يوافق قوله السابق ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠]، فهذا استثناء من ولده الذي سبق عليه القول ولم يؤمن، فمات ابن نوح فكان من الخاسرين.

وكذلك امرأة نوح كما قال تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

فهذا ربكم الغالب علىٰ أمره، والقاهر فوق عباده، يقول للشيء كن فيكون، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه سبحانه وتعالى.

فهذه هي السنن الكونية، وما حدث مع الأنبياء من الولد والأب والزَّوجة فهذا استثناء من الأصل الذي بنيت عليه هذه المقالة وبحثي هذا، فهناك عموم خصوص، ومطلق ومقيّد، وإنَّما ذكرت هذا العْنصر الثالث؛ لبيان عدم التعارض

بين الصلاح والفساد في الأصل الكلي وهو: أنَّ صلاح الأبناء بصلاح الآباء، مِمَّا يترتب عليه قاعدة كلية تنصلح بها شؤون النَّاس وأمورهم، فإنَّ الطريق إلىٰ الصلاح يكون ويبدأ من الأصل الذي هو الأب والزوج، فعليه إصلاح نفسه ابتداء بفعل الأوامر والامتثال لها، واجتناب النواهي والبعد عنها، فإذا كان كذلك وثبت عليه، فيُعَلِّمُ ذريتّه وأهله أن يكونوا مثله، فينصلح بصلاح الأب الصالح، صلاح ذريّته، ومن ثَمَّ صلاح البلاد والأوطان والأسر والمجتمعات، وذلك سلبًا وإيجابًا، والحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا، فإذا وجدت العلة وجد الحكم وإذا انتفت العلة انتفىٰ الحكم، يعني: العلَّة الصلاح فإذا صار الصلاح والصالح فاسدًا ارتفعت العلة وزالت؛ فزال الحكم والثمرة بزوال العلة.

روىٰ مسلم في «صحيحه» **(٢٢٣)** قال رسول اللَّه ﷺ: «**كل النَّاس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**».

وفي مسلم كذلك **(٢٦٩٩)** قال رسول اللَّه ﷺ: «**ومن أبطأ به عَمَلُهُ، لم يُسْرِع به نسبُهُ**».

وظاهر ما حدث للأنبياء -واللَّه تعالىٰ أعلىٰ وأعلم- تنبيهٌ للعالمين: أنَّ العبد الصالح لا يغني عن ولده شيئًا بصلاحه؛ ما دام الولد فاسد المعتقد، غير مطيع للَّه ورسوله، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وعليه فلا ينفعه صلاح أبيه ليرفع عنه إثم معاصيه وتبعاته، بل لابد أن يسير الخلق علىٰ مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٥].

ومن ثَمَّ، كان مقصود هذا البحث بيان اعتبار منهجية الإصلاح التربوي

الشرعي الذي يقوم علىٰ صلاح الرعية بصلاح الراعي إصلاحًا وتأديبًا وأخلاقًا ومعتقدًا للراعي، ثُمَّ ينتقل صلاحه لنفسه ببركة امتثال الأمر واجتناب النهي، فيبارك اللَّه له في ذريّته بصحة طاعته للَّه ابتداء، ثُمَّ قد يتخلّف هذا الصلاح، لا لفساد في الرَّاعي؛ لأنه قد عمل ما عليه، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، بل لفساد في المرعيّ وهو الأهل والولد والزوجة، وهذا من باب البلاء، وليس أدَّل علىٰ ذلك ممَّا كان مع بعض الأنبياء، وكقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨٠، ٨١]، ولو توسّعنا في العَليَّة والأسباب، لاشتملت العلة غير الطاعة والمعصية ودرجاتها، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦].

قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ١٢٥):

«كان لداود تسعة عشر ولدًا، فورث سليمان من بينهم نبوّته وملكه، ولو كانت وراثة مال لكان جميع أولاده سواء، قاله ابن العربي.

قال ابن العربيِّ القاضي المالكي: فلو كانت وراثه مال لانقسمت علىٰ العدد؛ فخصَّ اللَّه سليمان بما كان لداود من الحكمة والنبّوة، وزاده من فضله ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده». اهـ.

قلت: وهذا بيان مهم في هذا السياق.

وفي نفس السياق: ما رواه مسلم في «صحيحه» (**٢٢٠**) عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**عُرضت عليَّ الأمم، فرأيت النَّبِيّ ومعه الرُّهَيْط، والنَّبِيّ ومعه الرجل والرجلان، والنَّبِيّ وليس معه أحد**».

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢]، واللَّه من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

وصلىٰ اللَّه علىٰ نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين ، والحمد للَّه ربّ العالمين .

كتبه

الباحث الشرعيّ الدكتور عيد بن أبي السعود الكيَّال